فصلنامهٔ نقد و ادبیّات تطبیقی (پژوهش‌های زبان و ادبیّات عربی)
دانشکدهٔ ادبیّات و علوم انسانی – دانشگاه رازی کرمانشاه
سال دوّم، شمارهٔ ۶، تابستان ۱۳۹۱ هـ ش/ ۱۴۳۲ هـ ق/ ۲۰۱۲ م، صص ۱۲۱-۱۳۶

استدعاء المدن في شعر يحيى السّماوي*

رسول بلاوي
خريج فرع اللّغة العربيّة وآدابها من جامعة فردوسي مشهد
مرضية آباد
أستاذة مشاركة في قسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة فردوسي مشهد

الملخّص

تُعدّ المدينة من أهمّ الموضوعات الّتي تناولها الشّعراء في الشّعر العربي الحديث، فقد اتّخذوا منها مواقفاً مختلفة تتّفق مع رؤيتهم للحياة وقد أضفوا عليها دلالات رمزية تنمّ عن اتّجاهاتهم الفكرية؛ والشاعر العراقي يحيى السماوي يُعتبر من أبرز شعراء الحداثة الّذين اهتموا بهذا الجانب في شعرهم، فقد استدعى واقع وطنه العراق في شعره، فاحتضن مدنه وبلدانه وقراه الفقيرة واحياءه البائسة الّتي يعشعش فيها الجوع والفقر والمرض والثورة، ذكرها في شعره واستشهد بها وسجل معاناتها وناداها وتغنّى بأصالتها وجمالها وضرب الأمثلة بصمودها وصبرها وأحزانها.

وإنّنا في هذه الدراسة الّتي اعتمدت المنهج الوصفي – التّحليلي، تطرّقنا إلى أهمّ المدن العربية الّتي تناولها الشاعر في منجزه الشعري وقد توصّلنا إلى هذه النتيجة بأن أكثر المدن التي يستحضرها الشاعر هي: «بغداد»، «السّماوة» و «مكّة». «بغداد» تمثّل رمزاً للوجود العربي والأمجاد الغابرة في التاريخ، والشاعر يرى في هذه المدينة كل مدن الوطن؛ أما «السّماوة» تُعتبر للشاعر مدينة فاضلة، فهي مسرح طفولته وصباه، وهي عنده ليست نقلاً لرؤىً اجتماعية وتفاصيل يومية، بل هي ارتفاع إلى مستوى الرمز الذي يمنح القصيدة نبرة وجدانية خاصة، وتشكّل حلماً لصيقاً به وماضياً ليس أحلى منه؛ و «مكّة» تمثّل له دار الأمان فقد مكثَ فيها السماوي زمناً بعد مغادرة وطنه العراق وهناك أسباب أخرى دفعت الشاعر إلى استحضار هذه المدينة منها انّ «مكّة» مدينة عربية وجد فيها الشّاعر كل ما يأنس به الإنسان العربي من تقاليد وسلوكيات عربية، كما انّها تُعتَبر عاصمة الإسلام المعنوية والمقدسة يفد إليها المسلمون من شتى أنحاء العالم.

الكلمات الدّليليّة: الشعر العربي الحديث، يحيى السّماوي، المدن، العراق، الرّمز.

---

*. تاريخ الوصول: ۱۳۹۱/۲/۱۷ تاريخ القبول: ۱۳۹۱/۵/۲۵
العنوان الإلكترونى للكاتب المسئول: r.balawi@yahoo.com

۱. المقدّمة

هو يحيى عباس عبود السماوي، وُلد بمدينة السّماوة بالعراق في السادس عشر من مارس ۱۹۴۹ م، يُعتبر من روّاد الشعر العربى الحديث، امتلک ناصية الشعر في وقتٍ مبكر. تخّرج في كلية الآداب بجامعة المستنصرية عام ۱۹۷۴ م، ثمّ عمل بالتدريس والصحافة والإعلام، استهدف بالملاحقة والحصار من قبل البعثيين في النظام الصدامي حتى فرّ إلى المملكة العربية السعودية سنة ۱۹۹۱ م واستقرّ بها في جدّه حتى سنة ۱۹۹۷ م يعمل بالتدريس والصحافة، ثم انتقل مهاجراً إلى استراليا؛ وبها يقيم حتى كتابة هذه السطور (بدوى، ۲۰۱۰: ۱۱). أو كما يعرّف نفسه بلغته الشعرية: «أسمى الثلاثي: يحيى عباس عبود... انتقلت من رحم أمى إلى صدرها بتاريخ ۱۹۴۹/۳/۱۶ م في بيت طيني من بيوت مدينة السّماوة... أحمل شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها، وظيفتى الحالية، فلاح في بستان الأمانى، أو صيّاد غير ماهر، أنصب شباكى وفخاخى في حقول الحلم، أملاً في اصطياد هُدهُد فرحٍ على غصن اليقظة في زمنٍ ذَبَحَ الحزن فيه عصافير الأحلام» (نفس المصدر: ۱۱ و ۱۲).

اشترک مقاتلاً في الانتفاضة الشعبية ضد نظام صدام حسين عام ۱۹۹۱ م وإثر فشل الانتفاضة لجأ الشاعر إلى المملكة العربية السعودية، حيث أقام في ضيافة المملكة نحو ستّ سنوات عمل خلالها رئيساً للقسم السياسى والثقافي في إذاعة «صوت الشعب العراقى» المعارضة للنظام العراقي والتى كانت تُبثّ من مدينة جدة وفي هذه السنوات الستّ أعدّ عشرات البرامج السياسية ونشر أكثر من ثلاثمائة مقال سياسى في الصحافة العربية حول جرائم النظام ومنهجه التعسفى، اضافة إلى ما نشره من دواوين شعرية (القرنى، ۲۰۰۸: ۲۹ و ۳۰).

حاز السّماوى العديد من الجوائز، من بينها: الجائزة الأولى لمهرجان الجامعة المستنصرية للشعر عامى ۱۹۷۲ و ۱۹۷۳ م، جائزة أبها الثقافية الأولى عن ديوانه: «قلبى على وطنى» عام ۱۹۹۲ م، جائزة بن تركى للإبداع الشعرى برعاية جامعة الدول العربية عام ۱۹۹۸ م عن ديوانه: «هذه خيمتى فأين الوطن» (نفس المصدر: ۳۰).

نُشرت قصائده في معظم المنافذ الأدبية العربية وتُرجم العديد منها إلى اللغة الانجليزية وأخيراً إلى اللغة الفارسية ومن بين من ترجموا له: الشاعرة الأسترالية آن فيربيرن، والدّكتورة رغيد النحاس والأستاذ في جامعة بنفسلفانيا «صالح طعمه» وآخرون.

أصبح يحيى السّماوى شاعر القضية العراقية وشاعر الإنسانية ونصير الشعب المضطهد فنذر حياته مشرداً في اصقاع المعمورة إلى ان استقرّ به المقام واضعاً عصاه في استراليا.

فرغم اقامته في هذه الديار النائية الاّ أنّه عراقى من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، يعيش دائماً وسط الحدث وله تحاليل سياسية عبر شبكة المعلومات العالمية، فهو ليس شاعراً فحسب بل إنه محللٌ سياسيٌ وكاتبٌ وناقدٌ وقاصٌ بارعٌ لا يشقّ له غبار وقلمه يقطر علماً وادباً.

أصدر السماوي حتى الآن سبعة عشر ديواناً شعرياً وأربعة كتب نثرية وكتابا نقديا واحدا في أدب الرسائل وهذه الاصدارات الإثنين والعشرون مرتبة زمنياً على النحو التالي:
١. عيناك دنيا، العراق، ١٩٧٠ م./ ٢. قصائد في زمن السبي والبكاء،١٩٧١ م./ ٣. قلبي على وطني،١٩٩٢ م. / ٤. من أغاني المشرد، ١٩٩٣ م./ ٥. جرح باتساع الوطن (نصوص نثرية)، ١٩٩٤ م./ ٦. الإختيار، ١٩٩٤ م./ ٧. عيناك لي وطنٌ ومنفى، ١٩٩٥ م./ ٨. رباعيات، ١٩٩٦ م./ ٩. هذه خيمتي ...فأين الوطن؟ استراليا، ١٩٩٧ م./ ١٠. أطبقتُ أجفاني عليك، استراليا، ٢٠٠٠ م./ ١١. زنابق بريّة (رباعيات)، استراليا، ٢٠٠٣ م./ ١٢. الأفق نافذتي، استراليا،٢٠٠٣ م./ ١٣. نقوش على جذع نخلة، استراليا، ٢٠٠٦ م./ ١٤. قليلك ... لاكثيرهُنّ، استراليا، ٢٠٠٦ م./ ١٥. البكاء على كتف الوطن، دمشق، دارالتكوين، ٢٠٠٨ م./ ١٦. مسبحة من خزر الكلمات (نصوص نثرية)، دمشق، دارالتكوين، ٢٠٠٨ م./ ١٧. شاهدةُ قبرٍ من رخام الكلمات (نصوص نثرية)، ط ٢، دمشق، دارالتكوين، ٢٠٠٩ م./ ١٨ . التويجري وأسلوبه المتفرد في أدب الرسائل، ط ٢، دار التكوين، ٢٠٠٩./ ١٩. لماذا تأخرتِ دهراً، دمشق، دار الينابيع، ٢٠١٠ م./ ٢٠. بعيداً عني... قريباً منكِ (نصوص نثرية)، دمشق، دار الينابيع، ٢٠١١ م./ ٢١. تعالي لأبحث فيك عني، دمشق، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١٢م./ ٢٢. مناديل من حرير الكلمات (نصوص نثرية)، دمشق، دار التكوين للتأليف والنشر والترجمة، ٢٠١٢م.

والناظر المتأمّل لإصدرات الشاعر وتواريخ صدورها في طبعاتها الأولى، يشعر بأصالة موهبته الشعرية ونضجه المبكر؛ ومايلفت النظر هو تتابع إصدارات الشاعر وتواترها زمنياً، فما يكاد يمّر عام حتى يصدر مجموعة شعرية، بل ربّما يصدر في العام الواحد أكثر من مجموعة وهذا ينبئ عن تدّفق ينابيع موهبة الشاعر وغزارة روافدها التى تمدّها بباعث الشعر ومثيراته.

يحيى السماوي يمتلك أدواته الكتابية الشعرية وله أسلوبه وبصمته الواضحة على خارطتي الشعر العراقي والعربي، فنجد مفرداته الثرّة تنبض بالوفاء والحنين الى وطنه الذي غادره منذ عقود من السنين، وتفيض نصوصه الشاعرية شجنا ولوعة انسانية تعبران عن عمقها الإنساني التواق الى عراق معافى، وتختزن قصائده جذوة عشق صوفية لا تنطفىء موسومة بمخيالية واسعة ولغة عالية نابضة بالحياة؛ وهمّ الشاعر الإنساني الكوني هو ما يميّز كتاباته ويطبعها بالسمة العالمية، كما ان نصوصه تحمل ابعادا دلالية وصورا شاعرية فذّة تسحب القارىء الى مناطق روحية يجد من خلالها ذاته، وما تكتبه يمثل الاغلبية العظمى من العراقيين الذين عانوا ومازالوا يعانون ألم ومرارة الغربة في اي مكان يرتحلون اليه، والكثير من قصائده تنطوي على تعابير انسانية تتغلغل بين المفردات. ويمتلك السماوي تكنيكاً شعرياً مبهراً في ما يقوله من خلال كلماته وما يريد ان يوصله الى المتلقي، كما انه يضمّن في عدد من قصائده الميثولوجيا الدينية، التي تأتي موفقة في مواضع عدة من القصيدة، نابضة بانفعالات رؤيوية تمنح النص الشعري ديناميكية تفاعلية مع القارىء، ونصوصها عميقة في افكارها ومدلولاتها المحمّلة بالمعاناة التي تحفر في ذاكرة الشاعر...

السماوي يكتب نصوصا ذات بناء شعري رصين ويحافظ على فكرة النص من بدايته حتى نهايته من دون ان تترهل القصيدة او تفلت من يده الفكرة، او تنحو مناحي زائدة لا تخدم فكرة النص او بنائه اللغوي، وهنالك خيط سري يمتد من اول النص الى نهايته يشعر القارىء انه يقرا نصا لشاعر متمكن ومتمرس في الكتابة. فالشاعر مجدد ومتالق وكلماته الشفافة والرقيقة تدخل في الذات الإنسانية من دون استئذان ومن اوسع الابواب، والشاعر يتمتع بخيال خصب وخزين لغوي غنيّ بالمفردات الشاعرية الرائعة، كما انه يكتب قصائده بلوعة مختزنة في دواخله.

للسماوي حضور ثقافي واسع في اماكن عديدة، فهو يكتب معاناة الإنسانية ويستصرخ الضمير الإنساني من اجل انقاذ الإنسان من عذاباته ومكابداته اليومية، ويحمل في حله وترحاله تصورات ورؤى واضحة عن واقع الإنسان المهمّش والمسحوق تحت عجلات الديكتاتورية، لا سيما الإنسان العربي الذي يكابد ضغط الانظمة السلطوية الشمولية العربية، التي لا تحسب أية حسابات لشعوبها المقهورة، وطموحاتها للعيش بحرية وكرامة يتوق إليهما الإنسان العربي ويتطلع اليهما كل يوم. فجاءت نصوص الشاعر العراقي يحيى السماوي محمّلة بدلالات رمزية غاية في الروعة والاتقان والبناء الشعري الرصين.

والدراسات التي نالت قصب السبق في تجربة السماوي، نخصّ منها بالذكر كتابي الدّكتور حسين سرمک حسن، الموسومين بـ «إشكالية الحداثة في الشعر السياسي / يحيى السماوي أنموذجاً» و «سماويات / بين الحقيقة الشعرية والحقيقة الموضوعية» وكتاب الدّكتور محمد جاهين بدوي الموسوم بـ «العشق والإغتراب في شعر يحيى السماوي» وكتاب الدّكتورة فاطمة القرني الموسوم بـ «الشعر العراقي في المنفى / السّماوى نموذجاً» وكتابي عصام شرتح الموسومين بـ «آفاق الشعرية / دراسة فى شعر يحيى السماوي» و «موحيات الخطاب الشعري / دراسة في شعر يحيى السماوي» وكتاب ماجد الغرباوي الموسوم بـ «تجليات الحنين» وهو في مجلدين يضمّ بين دفتيه المقالات التي كُتِبت عن الشاعر بمناسبة تكريمه من قبل مؤسسة المثقف العربي في استراليا.

أما الدراسات التي تناولت تجربة السماوي الشعرية في ايران، فقليلة جدا منها: رسالة جامعية لنيل درجة الماجستير في جامعة إعداد المعلمين بمحافظة آذربايجان وعنوانها «مفاهيم المقاومة في شعر يحيى السماوي» باللغة الفارسية للطالبة «ليلا جباري كيلانده» وبإشراف «الدّكتور عبدالأحد غيبي»؛ ورسالة أخرى على مستوى الماجستير في جامعة رازي بمحافظة كرمانشاه وعنوانها «الأسلوبية في شعر يحيى السماوي» للطالب «بهنام باقري» وبإشراف «الدّكتور يحيى معروف».

ودراستنا الموسومة بـ «توظيف الموتيف في شعر يحيى السماوي» بإشراف الدّكتورة مرضية آباد في جامعة الفردوسي مشهد تُعتبر الرسالة الوحيدة التي جاءت على مستوى الدّكتوراه عن تجربة الشاعر.

هذا الإقبال الواسع على المنجز الشعري للسماوي داخل ايران وخارجه يدلّ على خصوبة شاعريته وثرائها وقيمتها الفنية ولا شک أنّنا سوف نشاهد الكثير من البحوث والدّراسات حول هذه التجربة الثرة التي لا زال عطاؤها متدفقاً...

ومن الكتب التي تناولت موضوع استدعاء المدن في الشعر نذكر منها: كتاب «المدينة في الشعر العربي المعاصر» للباحث مختار على ابو غالي؛ وكتاب «المدينة في الشعر العربي الحديث» لعبدالله رضوان؛ وكتاب «المدينة في الشعر العربي الجزائر نموذجاً» لإبراهيم رماني؛ وكتاب «صورة المدينة في الشعر العربي» لزهير عبيدات.

٢. عرض الموضوع

٢-١. صورة المدينة في الشعر

تعد المدينة في الشعر العربي المعاصر من أهم الإضاءات التي تلفت أبصار الشعراء، وبما أن المدينة مركزٌ هامٌ للتفاعل ومجاذبة الحديث، إلا أنها في عرف كثير من الشعراء سيئة الصورة، بسبب ارتفاع صوت القهر السياسي والبؤس الاجتماعي، وحدة الصراع من أجل النفوذ وإثبات الهوية للجماعة أو القبيلة أو الحزب أو الفكر. ومن هنا، بلور الشاعر المعاصر موقفه السلبي من المدينة، من خلال انتقاد ما يلفها من مظاهر، قد يكون في الغالب غير قادرٍ على استيعابها أو مسايرة نواتجها التي لا تتواءم مع مبادئ شاعريته.

إنَّ ضيق الشاعر العربي بالمدينة (في أغلبه) يأتي من حنينهِ الأصيل للطبيعة – أو حنينهُ إلى تاريخ المدينة: دمشق، بغداد، غرناطة...، ونعتقد انَّ موقف العداء للمدينة هو في الأصل غير وارد لدى الشاعر العربي، وإنما تَأثر الشعر العربي الحديث بالشعر الغربي والفلسفات الغربية، مما جعل بعض الشعراء يتخذونَ موقفاً معادياً للمدينة، هو موقف غير أصيل، تقليدي على الأغلب.

من المهم المؤكّد أنّ المدينة مقدمة في شعر يحيى السماوي بطريقة تختلف نسبيا عن مجمل الموقف من المدينة عند الشعراء العرب المحدثين من احمد عبدالمعطي حجازي حتى البياتي، الذين رأوا فيها تشويها لطبيعة الإنسان وجناية على إنسانيته وطيبته، ومجالا للقسوة والظلم والاختناق، وربما أيضا مسخا لأخلاقية الإنسان وخنقا لنداء وجدانه، ذلك أن حالة المدينة في الكون الشعري عند السماوي هي جزء من مناخ التراجيديا المخيمة على الوجود، وهي نفسها من وقود المأساة وليست بالضبط مسببة المأساة.

السّماوي لم يسمح لنفسه بالوقوع في شراك تلك الموجة الغربية الطارئة ولا غيرها من الموجات الدخيلة التي اجتاحت الشعر العربي الحديث وهيمنت على أذهان الشعراء العرب بل على العكس فالسماوي لعله يرى أن الأدب والفن نحو العالمية والشهرة إنما يمر من خلال الغوص والاغراق في عمق الاصالة المحلية وفهم الهموم والابعاد الواقعية فيها فلا عالمية ولا منافسة للآداب الاجنبية بالتشبه والمحاكاة أو بالقفز فوق الواقع المحلي ولهذا احتضن السماوي واقع الوطن العربي، احتضن مدنه وبلدانه وقراه الفقيرة واحياءه البائسة التي يعشعش فيها الجوع والفقر والمرض والثورة، ذكرها في شعره واستشهد بها في شعره وسجل معاناتها وناداها... وتغنى بأصالتها وجمالها وضرب الأمثلة بصمودها وصبرها واحزانها.

إنّ رفض المدينة لم يوقف الشعراء عن الانخراط فيها... لابد أن يعتاد الشاعر على حياة المدينة، وأن يتقبل الواقع ولو فكرياً، حتى لو كانت عاطفته حية في أعماقه، تلونها الحقول وأصوات القرى، «لقد آن الأوان أن يدرك الشاعر أن

المدينة لم تعد شيئاً طارئاً على الحياة، يحس الناس حولها ونحوها، بأنها خطر على النفس الإنسانية، والقيم الاخلاقية، وعلاقات الناس بعضهم ببعض، لابد أن يدرك أن المدينة نظام حضاري، قد استقرت قواعده، وأصبح الناس يمارسون فيها حياتهم بخيرها وشرها، دون أن يحسوا دائماً بالغربة، وبالحنين إلى القرية...» (أبو غالي، ۱۹۹۵: ۷۵).

هنا يدرك الشاعر أنه أصبح جزءاً من المدينة، ولابد من عقد صلح أو هدنة معها؛ لأن حياته متصلة بها، فعليه أن يُعيد النظر في موقفه المتشائم والمعادي للمدينة، ليتعاطف معها، ويعي أنها ليست كلها شيئا.

وكأن الشاعر قد انتقل من مرحلة الهروب من الواقع هروباً رومانسياً، الى فهم الواقع ووعيه ومحاولة التعايش معه تعايشاً واقعياً، «وهنا بدأ تحول ظاهر في موقف الشاعر من المدينة، فقد بدأت خيوط من الود تربط بينه وبينها، وإن لم ينقلب الحنق القديم كله الى حب غامر، وهنا بدأ الموقف الجدلي بين الشاعر والمدينة، يتكشف للشاعر نفسه، والمقصود بالموقف الجدلي هنا ذلك الصراع الذي تولد في هذا الموقف الجديد، بين النقمة على المدينة والتعاطف معها، فقد وجد الشاعر في رؤياه الجديدة أنه يستطيع أن يتعاطف معها بمقدار حنقه عليها» (عباس، ۱۹۷۸: ۳٤۳).

۲-۲. المدن في شعر السماوي

من أهمّ المدن المكررة فى شعر السماوي بغداد، السّماوة، البصرة، أربيل، تكريت، الكوفة، الكوت، مكّة، نجد، القدس ... والملاحظ أن كل هذه الأماكن مبرأة نسبيا من الضلوع في المأساة فهي أقرب إلى إطار للمأساة، مما هي مولدة أو حاضنة لها.

عندما يذكر الشاعر هذه المدن والمناطق في شعره فهو إنما يتكلم عن أهلها وشعبها وسكانها وما يكابدون ويعانون وهو عندما يتحدث عنها ويستشهد ويقسم بها ويضرب عنها الأمثلة يذكّر الناس بوجودها ويتظلم لأهلها.

أسماء الأماكن الجغرافية التي ترد في شعر يحيى السماوي مثل المدن والمواقع ذات التاريخ المشهود في الماضي أو الحاضر، ففي مقدمتها بالضرورة المدن العراقية وعاصمتها بغداد، ومن هذه المدن والأحياء البصرة وأربيل والرصافة والكرخ وكردستان، وهو يذكرها لا ليعبّر عن مكانتها الأثيرة في قلبه ومثول طيفها أمامه في الصحو والرقاد فحسب، بل ليؤكد أنها مازالت تحيا على الرغم مما فعل بها المارقون من أبنائها، ويحلم بعودة شمسها إلى السطوع مثلما ينبعث طائر الفينيق من رماده ويملأ الدنيا غناءً (فتح الباب، ۲۰۱۰: ۸٦ و ۸۷). يقول الشاعر مخاطباً وطنه المكبّل بالأصفاد والنار بنبرة تكشف عن حزنه الدفين:

يا جرحَنا الممتدُّ من «أربيل» و «البصرة»/ حتى شَفَتَيْ «مَيسانْ»/ السّيْفُ من «بغدادَ»/ والقبضةُ من «تكريتَ»/ والجثةُ من «ذي قارْ»/ هَرَبْتُ من ذاكرةِ النخلِ/ فما للنخلِ لا يُغادرُ القلبَ/ ولا نافذةَ الأفكارْ؟ (هذه خيمتي فأين الوطن: ۱۰۹ و ۱۱۰)

إلحاح الشاعر على تكرار المدن العراقية يشي بكثافة الشعور وزخم الانفعال وكثافة التأمل والاستغراق في الواقع المؤلم الذي يعيشه بلده العراق، فجاءت انعكاساً باطنيّاً لجراح الذات وآلامها، يقول الشاعر في هذا المقطع:

«كُلَّما نَرْفَعُ صوتاً باسمِ طفلٍ شاخَ رعباً/ وأَبٍ قَيَّدَهُ القَهْرُ/ وباسمِ الأرْمَلَةْ/ أَوقفوا سَفْكَ الدمِ المهدورِ في «الكوفةِ»/ في «الأنبارِ» و «البصرةِ»/ في «الكوتِ» وباقي المدنِ المُشْتَعِلَةْ/ فمتى تعطونَ للجائع خبزاً/ وأماناً للعصافيرِ التي غادرتِ

الحَقْلَ؟/ متَى يَرْكُنُ للحكمة «ربُّ القُنْبُلَةْ»./ فيجيبُ القَتَلَةْ:/ صَبْرَكم.../ لم يُكْمِلِ التحريرُ عامينِ/ علامَ العَجَلَةْ؟ (نقوشٌ على جذعِ نخلة: ۱۱۷-۱۱۸)

هنا يصور الشاعر الواقع القمعي في العراق تصويراً توصيفياً دقيقاً، بقدرة توصيفية ترسيميَّة عالية، ترصد الشعور الداخلي بالواقع المؤلم الذي تعيشه المدن العراقية في «الكوفة» و «الأنبار» و «البصرة» و «الكوت»...

لكلّ شاعر من الشعراء صفة يُعرف بها في قصائده وميزة يتميّز بها في شعره ونزوع ينهج نحوه في موضوعاته وهوى يميل اليه في سكبه وصياغاته الشعرية وشاعرنا الكبير يحيى السماوي يتميّز شعره بإستدعاء الاماكن والمدن العربية وهذه الميزة توضحت لنا مرتسماتها وأبعادها خلال تحضيرنا مباحث هذه الدراسة.

هناک مدن تكرّرت في شعره بكثرة كبغداد، السّماوة، مكّة،... بصورة غير متكلّفة حيث يأتي ذلک خلال وصفه لحالة أو حادثة أو قضية أو خلال التداعيات التي تثيرها الدلالات السياسية والنضالية أو التاريخية أو الفلسفية أو الذاتية. فهذه المدن المكرّرة في شعر السماوي يمكن لنا أن نعتبرها من أهم الموتيفات في شعر هذا الشاعر.

لننتقل الآن إلى الشواهد والأمثلة لنرى انعكاس هذه المدن والبلدان والمناطق في شعره ولنسافر معه من بلدة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى في أرجاء الوطن العربي ونتابع الصور التي رسمها لتلک المدن فخلّدها في شعره وسنرى السماوي كيف يتحسّر ويحزن ويتألم وكيف يفخر ويحرّض وبعض الأحيان يحاسب ويتهدد ويتوعد وهو يصف حالة هذه المدن وأوضاعها ينتقل بينها يجسّ آلامها ويمسح جراحها ويبكي لها ومن أجلها ويتباهى بها وفيها ويذكر الناس بمعاناتها ويتفقد أطفالها ونساءها ويتغنى بمآثر نضالها.

۲-۲-۱. بغداد

ومن المدن العربية التي كان لها تاريخ عريق وماضٍ مجيد هي بغداد؛ فالشاعر يحتج لما حلّ بهذه المدينة من ضغوطات الحكام وانتهاک حقوق شعبها وممارسة الظلم والعدوان والموت والإعدام، بعد ما كان لها من تاريخ سامٍ وبطولات فالسماوي ينطلق في شعره من الماضي المجيد الذي عرفته بغداد يوم كانت عاصمة الحضارة في العالم فيربط بين الماضي والحاضر الذي مكّن الظلم والاستبداد منها بعد الهيبة والعزة في عهدها القديم.

العراق الوطن، والشاعر يحيى السماوي الإنسان، بينهما تناغم وجداني مؤثر، وعطاء شعري متواتر يعكس ما لدى الشاعر من حب للوطن الذي فرقته الحروب والمؤامرات، والمؤتمرات، حتى باتت «بغداد» غصة أليمة وكاوية في فؤاد الشاعر.

الشاعر السماوي لا يحنّ إلى مدينة بغداد ذاتها، وإنما يرى في هذه المدينة أسطورة كل مدن الوطن، فهو الذي استهل أول أحزانه على فراق الوطن عام ۱۹۹۲م حينما قال:

أبدلت بالظلِّ – الهجيرَ – لأنّني   قد كنتُ في داري غريب الدار
أنا ضائعٌ مثل العراق ففتشي   عني بروضك لا بليل صحاري

(البكاء على كتف الوطن: ۳۳)

فالشاعر يذعن لأمر الغربة والرحيل عن مدن تسكن الوجدان، فلا هو القادر على مقاومة ما يجري، ولا هو المتيقن بأن النأي هو أسلم طريق، فالغربة وضياع الوطن هما عاملان مهمان من عوامل هزيمة الشاعر وموت حلمه.

ولما كانت مدينة بغداد هي أحبّ مكان على ظهر البسيطة للشاعر، فقد رددها ثلاث مرّات في القصيدة التالية، وهو يرثي حالها:

ثمّ لمّا أصبحتْ بغدادُ كرسيّاً لمنبوذٍ/ وصَحْناً لِنَفَرْ/ صارتِ الأوتارُ قَيْداً/ والمواويلُ ضَجَرْ/ ...../ ثمّ لمّا فتحتْ بغدادُ عينيها/ على صِبْيانِ «عَفلَقْ»/ وطني أصبحَ منفايَ/ وجرحي صار خَنْدَقْ/ ...../ منذ جيلينِ وبغدادُ بلا دِيْنٍ/ متى يَشْهَقُ بالتكبيرِ ثغرُ المِئذنةْ؟ (هذه خيمتي فأين الوطن: ٧٤ و ٧٥)

ونلاحظ أن لفظة «بغداد» في هذه القصيدة لفظة محورية، تتمفصل عندها الكلمات، وتتعانق، وتتشابك، مستمدة منها الحركة والنمو والتفاعل، لأنَّ لفظة «بغداد» هنا هي رمز الأمة العربية والوجود العربيّ.

«بغداد» تمثّل رمزاً للوجود العربيّ والأمجاد الغابرة في التاريخ، تمثّل أيضاً رمزاً للخصب والعطاء والتجدّد في الزمن الحاضر.

يتفجّع الشاعر على ما آلت إليه بغداد في قصيدة «هل هذه بغداد» الّتي يقول فيها:

ما العجبُ لو خان الفؤادُ ضلوعه؟ إنّ الذي خان العراقَ عراقي
فإذا النضالُ نخاسةٌ مفضوحة فاحتْ عفونتها بسوقِ نفاقِ
وإذا الطماحُ مناصبٌ مأجورة يُسعى لها زحفاً على الأعناقِ
هل هذه بغدادُ؟ كنتُ عهدتها تأبى مهادنةَ الدخيلِ العاقِ
هل هذه بغدادُ؟ تأكلُ ثديَها فإذا بها وخؤونها بوفاق!

(نقوش على جذع نخلة: ١٦٥)

ويرثي هذه المدينة بالأبيات التالية:

أسفي على بغداد... كيف غَدَت سوقاً وأنجمُ مجدِها سِلَعا؟
قد كان يربطني بهودجها خيطٌ من الآمال... وانقطعا

(السّابق: ٣١)

يَشخُص السماوي إلى بغداد ويقف أمامها ليخاطبها في قصيدة «لا تسأليه الصبر»:

لا تسأليه الصبر لو جَزعا مما رأى... بغدادُ... أو سمعا
فردٌ ولكن بين أضلعه وطنٌ وشعبٌ يخفقان معا
صادٍ يبلل باللظى شفةً ويصدُّ عن مستعذبٍ نبعا
أنِفَ انتهال الراح لا بطرا أو خوف ملتصٍّ ولا ورعا

(السّابق: ٢٥)

فالشاعر هنا يقف أمام «بغداد» متضرعاً ومناجياً في صورة تشخّص أمام العيان مرتسمة في ذهن القارئ فور قراءة رجاء المخاطب «لا تسأليه».

أما عاصمة الرشيد بغداد فلا يزال الشاعر غير معترفٍ بهزيمتها. وهي في الحقيقة لم تُهزم إلآ شكلاً. أمّا واقع بغداد وما في تاريخها العظيم من بطولات وأمجاد فهو باقٍ فيها ينتظر لحظة الإنبعاث والنهوض لتعود من جديد:

هُزِمَـــتْ بغـــدادُ؟ لا... لم تُهْـــزَمِ إنمـــا المهـــزومُ ربُّ الصَّنـــمِ
و «نظـــامٌ» ظـــالمُ الفعـــلِ طغـــا لمْ يصُـــنْ حُـــرمةَ جـــارٍ ودمِ
وغـــداً تنهـــضُ بغـــدادُ كمـــا يُـــنهِضُ الجـــذرُ غصـــونَ الـــبرعمِ

(زنابق برية: ١٠)

فالشاعر يتفاءل بنهضة العراق / بغداد في الغد القريب على رغم أنوف كل الأعداء والعملاء والحاقدين والإرهابيين. كما يقول:

عســـى بغـــداد تـــنفضُ عـــن ثراهـــا ظـــلامَ تعسّـــفٍ وســـياطَ قهـــرَ

(السّابق: ١٨٢)

نجد توقعات السماوي كانت تتراوح بين الأمل والرجاء من ناحية واليأس والتشاؤم الخانق من ناحية أخرى. والسبب هو حالة التضاد الوجداني التي هي من سمات شخصية الفرد العراقي. وأمام يحيى كانت تضطرم المتناقضات المدوّخة حدّ غثيان الإدراك. فنجده يعلن في مجموعة شعرية واحدة هي «الأفق نافذتي» – الصادرة في استراليا في كانون الأول من عام ٢٠٠٣ أي قبل احتلال بغداد بشهرين – عن توقعات تنبوئية متصارعة. فهو تارة يطلق تفاؤلا صادحا وقويا يقفز فوق كل مظاهر الخراب، ليعلن بملء فمه أنه قد ملأ يد روحه من أمل التغيير والخلاص كحتمية تاريخية لن يعطلها أي ظرف، سوف يزول الطغيان وسوف تعود حبيبته بغداد بهية ودارا للسلام كما كانت رغم المشانق والحرائق والقهر والسل والطاعون:

متفائلٌ/ رغم المشانقِ والحرائقِ/ واجتياحِ السُّلِّ والطاعونِ/ والقهرِ المبرمجِ/ رغم هذا الليلِ والكابوسِ/ والعيش الزؤامْ/ متفائل أن الغد الآتي سيشهدُ/ من يعيد الماءَ للناعورِ/ والناعورَ للبستانِ/ والبستانَ للكفِّ التي حرثتْ/ وأن حبيبتي بغدادَ سوف تعود ثانية كما كانت تُسمّى/ في قواميس المدائن والهوى دار السلامْ (الأفق نافذتي: ١٨٠و ١٨١).

ولكنّه تارة أخرى يفصح وبجلاء عن التوقّعات المناقضة. هنا وخلاف ما يصله من إشارات متفائلة زائفة من بغداد الأم عن واقعها المعاش، عن الربيع الآتي الذي سينعش الآمال، نجده يؤكد أن خريف الخراب القائم – وليس ربيع النماء المرجو – هو الذي سيدوم على أرض الرافدين لألف عام!! وآية ذلك أن الموت في كل مكان ولكأن العالم الأسفل قد لفظ أحشاءه وقاء محتوياته فأصبح الشاعر محاصرا بجثة من الخلف ومقبرة من الأمام (سرمک، ٢٠١٠م: ١٥٧-١٥٩):

لي ما يبرّر وحشتي/ بغداد تُطنب في الحديث عن الربيع/ ونشرة الأخبار تنبيء عن خريفٍ/ قد يدوم بأرض دجلةَ ألف عامِ.../ وأنا ورائي جثة تمشي ومقبرةٌ أمامي (السّابق: ١١١)

۲-۲-۲. السّماوة

يقول السماوي عن حُبّه لمدينة السّماوة مسرح طفولته وصباه وصدر شبابه وانتقاش صورتها في قلبه وذاكرته: «كانت مدينة السّماوة المكان الذي حُفرت تفاصيله في الذاكرة وبخاصةحيُّ الغربي، بأزقته الترابية الضيقة وبيوته الملاصقة تلاصق قطيع ماعز في طريق ضيق... ولأنني كنت ابن بقال فقير، فانه لم يكن بمقدوري الحلم بزيارة بغداد التي أسمع عنها كما لو أنها تقع في قارة أخرى» (بدوي، ۲۰۱۰: ۱۲ و ۱۳).

السّماوة تعتبر للشاعر مدينة فاضلة طالما يذكرها في شعره، يحنّ ويشتاق إليها؛ وقد ارسل لي يحيى السماوي عبر البريد الالكتروني النص التالي حول حياته في هذه المدينة الريفية: «انني عشت في السّماوة وكانت مدينة صغيرة محاطة بالبساتين والقرى. أي أن السّماوة كانت بمثابة قرية... كما أن والدي رحمه الله عمل فترة في زراعة الحبوب – القمح والشعير– وكنتُ اذهب معه ايام الحصاد... ومدينة السّماوة محاطة بعشرات القرى الصغيرة وهي تعتمد على سكان القرى والأرياف في جانب كبير من أنشطتها التجارية... كما أن وجود بيتنا (المبني من الطين والطابوق المصنوع يدويا) بمحاذاة بستان جعلني أقضي الكثير من وقتي في اللعب في البستان: أتسلّق النخيل وأستحم في جدول الماء والسواقي قبل تعلمي السباحة وممارستي السباحة في نهر الفرات الذي كان لا يبعد غير عشرات الأمتار عن بيتنا».

وفي هذه البيئة البسيطة بتكوينها، العميقة بفطرتها وبكارة مشاعرها، نشأ السماوي متشربا أفاويق البراءة والأمان والتكافل الاجتماعي وإلى ذلك يشير بقوله: «تعلمت من تلك البيئة أن التكافل الاجتماعي هو أعظم الأسوار والحصون لدرءِ المخاطر وأن التقوى وحدها الكفيلةُ بسكب مياه الفرح في دوارق الروح وأنه ليس ثمة ما يُثري فقر الجسد كغنى الروح وتعلمت من تلك البيئة أيضا، أن بذرة الصدق، هي الطريق الأسهل لاقتطاف ثمرة النجاح» (السّابق: ۱۳).

اتخذت السّماوة عند الشاعر يحيى السماوي شكل الحلم أو الرمز، فهي عنده ليست نقلاً لرؤىً اجتماعية وتفاصيل يومية، بل هي ارتفاع إلى مستوى الرمز الذي يمنح القصيدة نبرة وجدانية خاصة، فهي غالبا تحفر بجذورها عميقاً في وعي الشاعر السياسي وضميره الإجتماعي والأخلاقي، وتشكّل حلماً لصيقاً به وماضياً ليس أحلى منه:

السّماوة دُميتي في حجرة الكون وفراشتي في حديقة العالم...

(شاهدة قبر من رخام الكلمات: ۱۰۶)

وكما يقول:

ويا «سماوة» قنديلي به عطشٌ لنجم ليلكِ... لو عادت ليالينا

(هذه خيمتي فأين الوطن: ۱۳۳)

يجيب الشاعر يحيى السماوي على سؤال الناقد عصام شرتح حول حياة الطفولة والبيئة التي ترعرع فيها في حوار أجراه معه: «أنا ابن أم قروية وأب كان يبيع البرتقال على أرصفة المدينة قبل أن يستأجر دكانا صغيرا للبقالة... ولدت في مدينة السّماوة، في بيت طيني من بيوت حيّ «الغربي» المتلاصق البيوت تلاصق قطيع ماعز في حظيرة ضيّقة... سطوحنا مفتوحة على بعضها... وأبوابنا لا أقفال لها... الأمهات يرضعن أطفال الجيران مع أطفالهن... في هذه البيئة

عرفت معنى التكافل الإجتماعي فتعلقت به مؤمنا بدوره الفاعل في إقامة المدينة الفاضلة... ومن خلال هذه البيئة عرفت أن الفقراء هم أكثر طبقات المجتمع طيبة وأنقاها محبة ومروءة ومكارم أخلاق وحبا للوطن، فكانوا من بين أهم موادّي الشعرية مثلما كانوا السبب وراء انتمائي المبكّر لأحد الأحزاب السياسية المحظورة المنافحة عن الفقراء والكادحين والعدالة وسيادة القانون الذي سأتعرض للتعذيب والفصل والمطاردة بسببه حتى بعد توقفي عن العمل الحزبي» (شرتح، ٢٠١١: صحيفة المثقف).

ويذكر السماوي في الأبيات التالية بيتهم الطيني في السّماوة مكنّياً عنه باسم ليلى / الحبيبة:

وليلى لم تكن ليلى... ولكن أكنّي باسمها خبزي ومائي!
وليلى غابتي العذراء، ليلى صباحاتٌ ملوّثةُ الضّياء!
وبيتٌ في «السّماوة» وهو طينٌ ونخلٌ ينحني فرطَ الحياءِ!

(عيناكِ لي وطن ومنفى: ٢٢)

ويأسف الشاعر على تركه «السّماوة» وما تعرّض له من شقاء جراء مغادرته لهذه المدينة فيقول:

لماذا تركتُ السّماوة خلفي/ وتمّمتُ نحو المقادير خطوي/ فكنتُ الشقيّا؟ (لماذا تأخرتِ دهراً: ٦٢)

يتردد اسم مدينته ومسقط رأسه على امتداد دواوينه الشعرية وتأخذ مظاهر الخصب في أغلب أحوالها، فهي منجم زاخر بكنوز لا حدود لعطائها وغزارتها:

أبي عاش سبعين عاماً ونيفاً/ على الخبز والتمرِ / ما قال أفٍّ.../ ولا صاحَ بالخوفِ تبّاً... / ولم يتّخذ غيرَ نخلِ السّماوة/ خلّاً وفيّاً!! (السّابق: ٦٣)

يرسم الشاعر لوحة بهيجة لمدينته «السّماوة»، فقد صارت مدينته الفاضلة وقد تفنّن في إبراز مظاهر الخصب والنماء فيها والخضرة والجمال الذي يغمرها، فكثيراً ما نجده يستحضر النخل والنهر والبستان في سياق الكلام عن السّماوة، لأن هذه المدينة معروفة بنخيلها وبستاينها وأنهارها حيث تبدو ربيعاً دائماً لا يعرف الذبول والإمحال ولا يطاله صيفٌ أو خريف؛ والسماوي يحنّ ويشتاق إلى مدينته ومسقط رأسه السّماوة التي تمثّل له الحب والجمال، ففي المقطع التالي يقول:

الله! ما أحلى السّماوة... ليلُها باكي النداوةِ ضاحكُ النجماتِ
الله! ما أحلى السّماوة... صُبحها صافٍ صفاءَ الضوءِ في المرآةِ
فتّانةٌ... حتى نباحُ كلابها خلفَ القرى يغوي ثغاءِ الشاةِ

(نقوش على جذع نخلة: ٧٨)

من تجربة فاصلة في حياة الشاعر تمتاح التجربة الشعرية وجودها، ومن لحظة نادرة أيضاً يبدأ الشاعر عرض تجربته الشعرية، لقد عاد الشاعر إلى وطنه بعد طول غياب وضنى واغتراب وألقى مرساته بين أحبته «السّماوة» فأخذ يخطو خطواته الأولى فوق ترابها بعد تغرب عن وطنه العراق دام قرابة عقدين إلا بضعاً، عاشها غريباً فى المنافي، حيث تجرع ما تجرع من الضنى، وعصف الشوق والحنين والحرمان:

أنـا في (السّـماوة)...لـنْ أُكَـذّبَ مُقلـتي　　النهـــرُ و (الجســـرُالحديدُ) هُداتــــي
وهنــا ــ جِــوارَ الجسرِــ كانــت قَلْعَــةٌ　　حَــــجَريَّةٌ مكشــــوفةُ الحُجَـــراتِ
هــذا هــو (الســجنُ القديمُ)...وَخَلْفَــهُ　　جِهَـــةَ (الرُمَيْثَـــةِ) ســـاحُ إعْـــداماتِ
وهنـــاكَ بيـــتُ أبي... ولكـــن لمْ يَعُـــدْ　　لأبي بـــهِ ظِـــلٌ علـــى الشُرُفـــاتِ

(نقوش على جذع نخلة: ٦٨)

ها هو يعلن أنه في «السّماوة» مؤكداً من خلال تكرار الجملة «انا في السّماوة» وخبرتها أنه حقيقة ها هنا؛ وليبدأ في استكشاف الطريق والأماكن، معدداً ملامحها التي لاتزال باقية، وتلك التي تغيرت (الجسر القديم، قلعة مكشوفة الحجرات، ساحات الإعدام، بيت أبي، بستان الإمامي...) مشيراً في الوقت ذاته إلى الرموز الراسخة في المكان مثل «النخيل» الذي أصبح مستوحش الأعذاق والسعفات، مطلقا العنان لذاكرته في استرجاع ما يمكن استرجاعه من ذلك الماضي الأثير، ومستوثقاً من ملامح الجغرافيا (خلف السجن القديم، جهة الرُميثية) وقد هاله ما أصاب المكان من تبدل إلى الأسوأ.

۲-۲-۳. مكّة

أخذت مكة خصوصيتها الوجودية لا من كونها بقعة جغرافية من البقاع المنتشرة من أرجاء الكرة الأرضية؛ بل للمعنى التاريخي الذي استمدته من قيام البيت العتيق فوق ترابها الذي تطهّر به، وكان بين موطن البيت وبين إبراهيم الخليل تفاعل مستمر وجاذبية وتساوق بين المكان والمعنى.

لقد بدأ التساوق بدعاء إبراهيم عليه السلام إلى ربه، أن يتمَّ على هذه البقعة الطاهرة نعمته بالأمن والسلام والاستقرار لتكون موئل الأفئدة ومهوى جوهر الإنسان.

وجاء قول الله تعالى في كتابه الكريم: «**وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم* ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**» (ابراهيم / ۳۵-۳۷).

إذاً مكة المكرمة هي العاصمة الدينية والثقافية والاجتماعية لجميع المسلمين في كل زمان ومكان، وهي مهوى أفئدتهم، كما هي مستقر وحدتهم، ومجمع أخوتهم، ولحكمة ما، لم تكن مكة المكرمة عاصمة سياسية لأي دولة من دولهم، لأنها لو كانت كذلك لنسبت إلى سياستها وخصت بهم، ولأن القيمة الإيمانية أكبر وأشمل من القيمة السياسية، فقد ظلت مكة المكرمة عاصمة الإسلام بمعطياته الروحية والوجدانية كلها.

والشاعر يحيى السماوي عندما ضايقته السلطة الحاكمة وضاقت عليه المدن العراقية لم يجد أمامه خياراً إلّا الفرار من بلده فقد قصد مكّة المكرمة وقضى بها شطراً من حياته آمناً بعد ما كان ملاحقاً خائفاً مترقّباً:

كنـــتِ لي – مكّـــة – أُمّـــا وأبـــا　　ومـــــلاذاً... ورغيفـــــاً طيبّـــــا

(زنابق برية: ۷٥)

فقد اتخذ يحيى السماوي «مكّة» مقاما بعد أعوام عديدة من مغادرته بلده، فكانت دار الأمان التي مكث فيها زمنا قبل ان يلقي عصا الترحال في أقصى بقعة في الكرة الأرضية وهي مدينة استرالية يعيش فيها الان. تشفّ اشعاره في «مكّة» عن انتمائه الإسلامي الأصيل وروحه العربية التي أنست بهذه المدينة منذ اللحظة الأولى:

أنـــا يـــا «مكّـــة» منـــذُ اكتحلـــت بـــك عينـــاي اكتشـــفتُ الألقـــا

(السّابق: ١٤٥)

ويقول في قصيدة «عشقت ديار ليلى قبل ليلى» مخاطباً فيها الأديب عبدالعزيز التويجري:

أبـــا الحـــرفِ البليـــغ وهـــل جـــوابُ كصـــمتي حـــين أعجـــزني جـــوابي؟
بلـــى... لم ألـــقَ مثـــل عـــرارِ نجـــدٍ ولا كرحـــاب مكّـــة مـــن رحـــابِ

(الأفق نافذتي: ٤٠ و ٤١)

فيتحسّر الشاعر على تركه «مكّة»، فقد بات حزيناً ظامئاً بعد طول المسرة والحبور فيها:

مـا العجـبُ إن بـتّ الحـزينَ الظـامي؟ هـــل بعـــد «مكّـــة» منهـــلٌ لأُوامِ؟
كـــان الحبـــورُ مـــلاءتي ووســـادتي فيهـــا... ونَفـــحُ بخورهـــا أنســـامي

(زنابق برية: ٤٦)

كما يقول:

هـــل بعـــد مكّـــة يســـتطابُ ثـــرىً وبغيرهـــــا يُســـــتعذبُ العَبَـــــقُ

(السّابق: ١١٦)

ولأن الشاعر عاش حينا من الدهر في الأراضي المقدسة أو قريبا منها فقد استبدّ به الشوق إلى «مكة» كي يشرب من نبعها ويشعر بالدفء والحنان:

لـــترابِ (مكـــةَ)... لا لضـــوء الأنجـــم تـــاق الفـــؤادُ... وبـــات في عطـــشٍ دمـــي
حســـبي إذا انتهلـــتْ نميـــرَ أذانِهـــا روحـــي وقبَّـــل طـــرفَ (أســـودِها) فمـــي
وسَعَـــيْتُ ســـبعاً في ظـــلال رحابِهـــا وختمـــتُ تطـــوافي برشـــفة (زمـــزم)
ألفيـــتُ أيـــامي تفيـــضُ مســـرَّة فكأننـــي مـــن قبـــلُ لـــم أتنعَّـــم

(السّابق: ٨٨)

والسماوي يستدعي «مكّة» في شعره لأنه عاشَ فيها ردحاً من الدهر فتنعّم بخيراتها وشعرَ فيها بالأمان الذي كان يفتقده في بلده العراق وهناك أسباب أخرى دفعت الشاعر إلى استحضار هذه المدينة منها انّ «مكّة» مدينة عربية وجد فيها الشاعر كل ما يأنسَ فيه الإنسان العربي من تقاليد وسلوكيات عربية، كما انها تُعتَبر عاصمة الإسلام المعنوية والمقدسة يفد لها المسلمون من شتى أنحاء العالم ولعلّ الشاعر كان يلتقي فيها بالأصدقاء والأحباب الذين يقصدون بيت الله الحرام.

النّتيجة

١. تُعتبر المدينة ثيمة محورية في الشعر العربي الحديث، فقد إتّخذ منها أكثر الشعراء موقفاً عدائياً وسلبياً، بسبب ارتفاع صوت القهر السياسي والبؤس الاجتماعي، وحدة الصراع ومن خلال انتقاد ما يلفها من مظاهر، قد يكون في الغالب غير قادرٍ على استيعابها أو مسايرة نواتجها التي لا تتواءم مع مبادئ شاعريته. أمّا حالة المدينة في شعر الشاعر العراقي يحيى السماوي مقدّمة بطريقة تختلف نسبيّاً عن موقف الشعراء المحدثين، فهي عنده جزء من مناخ التراجيديا المخيمة على الوجود، وهي نفسها من وقود المأساة وليست بالضبط مسببة المأساة.

٢. أكثر المدن التي ترد في شعر السماوي هي مدن ومواقع عربية ذات تاريخ مشهود كبغداد، السّماوة، البصرة، أربيل، تكريت، الكوفة، الكوت، مكّة، نجد، القدس؛ والملاحظ أن كل هذه الأماكن مبرأة نسبيا من الضلوع في المأساة فهي اقرب إلى إطار للمأساة، مما هي مولدة أو حاضنة لها؛ والشاعر عندما يذكر هذه المدن والمناطق في شعره فهو يتكلم عن أهلها وشعبها وسكانها وما يكابدون ويعانون وهو عندما يتحدث عنها ويستشهد بها يذكّر الناس بوجودها وتاريخها المجيد ومكانتها الأثيرة في قلبه.

المصادر والمراجع

الف. الكتب

●***القرآن الكريم***.

١. أبو غالي، مختار علي (١٩٩٥)؛ ***المدينة في الشعر العربي المعاصر***، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٩٦.

٢. بدوى، محمد جاهين (٢٠١٠)؛ ***العشق والاغتراب في شعر يحيى السّماوي (قليلک لا كثيرهنّ نموذجاً)***، الطبعة الأولى، دمشق: دار الينابيع.

٣. سرمک، حسين (٢٠١٠م)؛ ***اشكاليات الحداثة فى شعر الرفض والرثاء (يحيى السماوي نموذجاً)***، دمشق: دار الينابيع.

٤. السماوي، يحيى (٢٠٠٣م)؛ ***الأفق نافذتي، إديلايد***، استراليا.

٥. -------- (٢٠٠٨م)؛ ***البكاء على كتف الوطن***، دمشق: التكوين.

٦. -------- (٢٠٠٣م)؛ ***زنابق برية***، استراليا.

٧. -------- (٢٠١٠م)؛ ***شاهدة قبرمن رخام الكلمات***، الطبعة الثانية، دمشق: دار التكوين.

٨. -------- (١٤١٥هـ)؛ ***عيناک لي وطن ومنفى***، طبعة الأولى، جدّة: منشورات دار الظاهري.

٩. -------- (٢٠١٠م)؛ ***لماذا تأخرت دهراً***، دمشق: دار الينابيع.

١٠. ------- (٢٠٠٥م)؛ ***نقوش على جذع نخلة***، استراليا: منشورات مجلة كلمات – سيدني.

١١. ------- (١٩٩٧م)؛ ***هذه خيمتي... فأين الوطن؟*** الطبعة الأولى، ملبورن، استراليا: مطبوعات R.M.Gregory.

١٢. عبّاس، إحسان (١٩٧٨م)؛ ***إتجاهات الشعر العربي المعاصر***، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد الثاني.

١٣. فتح الباب، حسن (٢٠١٠م)؛ ***قراءة فى ديوان «هذه خيمتي فأين الوطن» للشاعر يحيى السماوي***، مقال منشورفي كتاب «تجليات الحنين فى تكريم الشاعر يحيى السماوي»، ج ٢، دمشق: دار الينابيع.

١٤. القرني، فاطمة (٢٠٠٨)؛ ***الشعر العراقى في المنفى (السّماوى نموذجاً)***، الطبعة الأولى، الرّياض: موسسة اليمامة الصحيفة.

ب. المواقع الإلكترونيّة

١٥. شرتح، عصام (٢٠١١ م)؛ «حوار مع الشاعر الكبير يحيى السماوي ١-٣»، **صحيفة المثقف**، العدد: ١٩٤٢، على الرابط التالي:

http://www.almothaqaf.com/index.php?option=com_content&view=article&id=56991:----------3----&catid=110:2011-09-13-04-28-35&Itemid=194

فراخوانی شهرها در شعر یحیی سماوی*

رسول بلاوی
فارغ‌التّحصیل رشتهٔ زبان و ادبیّات عربی، دانشگاه فردوسی مشهد
مرضیه آباد
دانشیار دانشگاه فردوسی مشهد

چکیده

شهر از بارزترین موضوعاتی است که شاعران در شعر معاصر عرب به آن پرداخته‌اند. فراخوانی شهرها در بین شاعران متفاوت است. اغلب دارای دلالت‌های نمادین و مناسب با گرایش‌های فکری و دیدگاه‌های آنها نسبت به زندگی است. یحیی سماوی شاعر معاصر عراقی از بارزترین شاعران نوگراست که در شعر خود به مفهوم نمادین شهرها پرداخته است. بیشتر شهرها و روستاهای کشور عراق را در شعر خود ترسیم کرده و از فقر، بیماری و وضعیّت نابسامان آنها شکایت می‌کند.

مقالهٔ حاضر برآن است که بر مبنای روش توصیفی - تحلیلی، به مهم‌ترین شهرهای عربی و دلالت‌های نمادین آنها در شعر سماوی بپردازد. «بغداد»، «سماوه» و «مکّه» به ترتیب بیشترین شهرهای به کار رفته در شعر اوست. «بغداد» پایتخت با پیشینهٔ تاریخی، نماد تمام شهرهای عراق، بلکه نماد کیان عربی به شمار می‌رود. «سماوه» زادگاه شاعر و آرمان‌شهر وی، نماد زیبایی و سرسبزی، عفّت و دلاوری می‌باشد؛ و «مکّه» به عنوان یکی از شهرهای عربی و پایتخت معنوی اسلام بوده که شاعر پس از ترک کشور عراق، در آنجا اقامت گزید و برای نخستین‌بار طعم امنیّت را در این شهر چشید.

واژگان کلیدی: شعر معاصر عربی، یحیی سماوی، شهرها، عراق، نماد.

---

*. تاریخ دریافت: ۱۳۹۱/۲/۱۷ تاریخ پذیرش: ۱۳۹۱/۵/۲۵

رایانامهٔ نویسندهٔ مسئول: r.balawi@yahoo.com